ملخص ورقة بحثية بعنوان :

الآثار الخطيرة لواقع اللغة العربية في الإعلام المرئي

د. جليل وداي حمود

علاقة عضوية تلك التي تربط اللغة بالفكر، ذلك ان اللغة وعاء الفكر، فلا فكر من دون لغة، ولا لغة من دون فكر، فالمرء يفكر باللغة ، وبذا فأن مستوى الفكر مرتبط بمستوى اللغة التي يفكر بها المرء، فإذا ما أصاب اللغة خلل ما، فأن ذلك الخلل ينتقل تلقائيا الى الفكر[1]، وعليه فأن الأمة التي تنحدر لغتها يتراجع فكرها، وبالتالي يتعذر عليها الابتكار وحل المشكلات التي تتعرض لها، فضلاً عن تدني ثقافتها وصعوبة تواصلها ومواكبتها للثقافات الأخرى، وبذا فأن الارتقاء بالأمة لابد ان يكون مدخله لغويا، وهذا ما دعا الأمم المختلفة إلى ايلاء لغتها عناية بالغة [2] .

كما ان اشتراك أبناء الأمة في اللغة يؤدي إلى وحدة في تفكيرهم ومشاعرهم، فضلاً عن إيجاد حياة فكرية وعاطفية مشتركة، وما يتبع ذلك من تكوين مفاهيم ونظرات موحدة إزاء الأشياء، الأمر الذي يقود إلى انصهارهم في وحدة خاصة مميزة تسهم بفاعلية في تكوين هوية الأمة وشخصيتها، ذلك ان اللغة مرآة تعكس سيكولوجية الأمة بما تتسم به من خصائص فكرية ونفسية واجتماعية، لهذا قيل ان اللغة هي (الوطن العقلي للأمة) [3] .

اللغة في الإعلام

هذه المنطلقات الفكرية المهمة يفترض ان تكون حاضرة في أذهان القائمين على المؤسسات البنيوية التي تقع على عاتقها مهمة بناء ثقافة المجتمع بضمنها الارتقاء بلغته ، بخاصة ان نقل الثقافة من جيل إلى آخر أو من ثقافة إلى أخرى عبر التواصل الثقافي لن يتم بشكله المتكامل إلا عبر اللغة.
وتشكل وسائل الاتصال الجماهيرية (التلفزيون، الراديو، الانترنيت، السينما، الكتاب، الصحافة المطبوعة) بوصفها واحدة من ابرز المؤسسات البنيوية أداة فاعلة في تطوير اللغة وإنمائها، لما تتسم به هذه الوسائل من قدرة كبيرة على التأثير، ومخاطبة شرائح اجتماعية واسعة، فضلاً عن إمكاناتها على تجاوز معيقات الاتصال التقليدية، لذلك عول المعنيون باللغة والثقافة كثيرا على هذه الوسائل، لاعتبارات كثيرة منها ما يتعلق بأن اللغة اللفظية مازالت الوسيلة الأكثر استخداما في العملية الإعلامية.
وبالرغم من ان وسائل الإعلام العربية تشهد نمواً متسارعاً، إلا ان تراجعاً واضحاً بدا في عنايتها باللغة إلى درجة ان الكثير منها لم تشغل اللغة مساحة واضحة من اهتمامها، مع ان سوء استخدام اللغة الذي تمظهر بأشكال مختلفة يقود الى عدم اكتمال دائرة العملية الاتصالية بالشكل الأمثل، وان كان ظاهر العملية يوحي بان الاتصال قد

تحقق، فالقائم بالاتصال غالبا ما يجهل الكيفيات التي جرى من خلالها فك رموز الرسالة الاتصالية، ولا طبيعة ادراكات الجمهور للمضامين المرمزة باللغة اللفظية.

كفاءة الرموز

وعلى هذا فأن النجاح في تحقيق أهداف الاتصال يتوقف على كفاءة الرموز المستخدمة وقدرتها على نقل دلالات بعينها، وان استخدام رموز اللهجات مثلا اقل كفاءة من رمز اللغة الأم، وبذا فأن إهمال رموز اللغة الأم يجعل الرسائل الإعلامية تنطوي على دلالات غير تلك التي يقصدها القائم بالاتصال، ما يعني ان فكرة الرسالة او مضمونها لن يفهمها الجمهور بدقة وان وصلته الرسالة، فوصول الرسالة لا يعني بأي حال من الأحوال إدراك مضامينها، ولاشك ان الخلل يكمن في شكل الرسالة، أي في مجموعة المفردات والعبارات المستخدمة.
واذا كانت الرسالة هي الوسيلة كما يقول عالم الاتصال ما كلوهان، فأن الخلل الذي تتعرض له الرسالة في صياغاتها والرموز المعتمدة، ينعكس تلقائيا على الوسيلة، وبالتالي تبقى الوسيلة تمارس شكلا اتصاليا فارغا من محتواه، وهذا ما يكشف تعثر تحقيق البرامج الثقافية التي تطمح بعض وسائل الإعلام إكسابها إلى الجمهور.
ان مقارنة بسيطة بين الكلف المبذولة سواء أكانت مادية أم معنوية مع مستويات تمثل الجمهور للبرامج الثقافية، يتبين ان نسبة المتحقق لا يشكل قيمة تستحق التقدير.

تميع لغوي

وفي الوقت الذي ينتظر فيه من وسائل الاتصال الجماهيرية الارتقاء بلغة الجمهور، يلاحظ ان جل تلك الوسائل قد تميعت مع اللغة السائدة في الواقع بمستوياتها المختلفة، وبدل ان تكون لغة الجمهور مستمدة من اللغة التي تعتمدها وسائل الإعلام، حدث العكس، اذا اعتمدت وسائل الإعلام لغة الجمهور في عملياتها الاتصالية، ظنا من القائمين بالاتصال ان ذلك يتيح فرصا أوسع وأسرع في إيصال مضامين رسائلهم للجمهور.
وكان هذا واحدا من الأوهام التي شهدت شيوعا واسعا في المشهد الإعلامي العربي، من دون ان ينتبه القائمون على تلك الوسائل الى ان اعتماد أي مستوى من مستويات اللغة السائدة في الواقع يقود الى تضييق المساحة التي يبغون توسيعها، من خلال الطرد غير المقصود لشرائح اجتماعية غير محلية يتعذر عليها إدراك مضامين رسائلهم او فك رموزها بسلاسة، وهو ما تستوجبه العملية الإعلامية، فضلاً عن الإغراق بالمحلية في وقت تستثمر فيه وسائل إعلامية الفضاء المفتوح الذي إتاحته ثورة الاتصال للتواصل مع الغير أو اختراقه وغيرها من الأهداف.

منطقة هشة بآذان صماء

كما ان عدم ايلاء اللغة ما تستحق من عناية في وسائل الإعلام جعل منها منطقة هشة لنفاذ غير المعنيين باللغة والإعلام على حد سواء، ما شكل معولا ينخر في جسد الوسيلة الإعلامية والتقليل من شأنها في نظر الجمهور، وانعكاس ذلك على مجموعة القيم المهنية التي يفترض بالوسائل الإعلامية التحلي بها.
ومع ان الجهات المعنية بأمر اللغة قد تعالت صيحاتها مبكرا بضرورة ايلاء اللغة أهمية فائقة، بخاصة في وسائل الإعلام، إلا ان تلك الصيحات لم تلق آذانا صاغية، ما جعل الأمة إزاء تحديات محتملة تضاف إلى المتراكم من التحديات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فضلاً عن تراجع الفكر وانحدار الثقافة.
وبالرغم من أدراك الجميع ان وسائل الاتصال الجماهيرية وسائل إخبارية وثقافية وترويجية وترويحية، لكن يراد منها بالدرجة الأساس تشكيل ثقافة مستنيرة، إلا ان إهمال اللغة يفرغ تلك الوسائل من أدوارها الأساسية في تنمية المجتمع لعدم قدرتها على تحقيق غاياتها الثقافية وان تفوقت في الوصول إلى أهدافها الإخبارية، ومثل هذا الأمر يسهم من دون قصد في تخريب العمليات الثقافية التي تقوم بها المؤسسات الأخرى، وعليه فأن الأمر من الخطورة بمكان يقتضي تأمله بعناية لتحديد الآليات التي من شأنها التصدي لهذه المخاطر غير المنظورة.

تأثير الفضائيات السائبة

تحت لافتة حرية الإعلام تعمل الكثير من الفضائيات العربية على هواها ، وغدا الكثير منها لايمكن وصفه إلا بـ (الفضائيات السائبة) ، التي تحركها عوامل الربح والشهرة ، من دون ان تكون لقضية النهوض بالأمة مكانا لها فيها ، ومثل هذه الوسائل لايمكن ان تنظر الى اللغة بوصفها مقوما أساسيا من مقومات وحدة المجتمع العربي ، بل تقتصر نظرتها على أنها أداة للتواصل بصرف النظر عن نوع وحدود المجتمع الذي تعمل فيه ، فضلا عن عدم اهتمامها بطبيعة الرموز المستخدمة ، لذا فان شيوع هذه النظرة من شأنه ان يقلل بحدود كبيرة من النزعة القومية لدى الشعب العربي ، وانطلاقا من ان النزعة القومية متولدة في جانب كبير منها من وحدة اللغة ، أعطى رائد الفكر القومي ساطع الحصري لوحدة اللغة أولوية من حيث أنها تمثل روح الأمة وحياتها ، مؤكدا أنها العمود الفقري والمحور الرئيس في القومية العربية [4] . وعلى هذا جزم الارسوزي بأن الوصول إلى الوعي العربي الذي أنتج الحضارة العربية لايتم إلا من خلال (بعث كلامنا) وحمايته من الزوال والاندثار ومن كل الدخلاء على البيئة العربية [5].
وعلى وفق هذا المنظور فأن الإعلام السائب يعد دخيلا على البيئة العربية ، وبالفعل اسهم بقدر كبير في النيل من اللغة ، متضامنا مع التردي الملحوظ الذي بلغته المدرسة العربية بوصفها الوكالة الرئيسة في تنمية اللغة لدى الأجيال .

ومن شأن هكذا إعلام غير مسؤول ويفتقد إلى رؤية قومية ولاسيما في إطار اللغة ان يفكك النسيج الاجتماعي العربي بقصد أو من دون قصد ، وبالتالي تفكيك وحدة الأمة التي لن تستطيع بلوغ أهدافها الحقيقية من دون شيوع نزعة عربية إسلامية في نفوس ابنائها .ولكن السؤال الأهم يتمثل في كيفية التصدي للإعلام السائب من دون ان يكون للتصدي انعكاسات سلبية على حرية الإعلام ، أنها بالفعل المعادلة الصعبة التي في ضوء التمكن منها يكون للإعلام دوره الفاعل والمؤثر في عملية النهوض التي شكلت التحدي الأبرز لبلادنا العربية .

وبهذا الصدد لايختلف اثنان في ان هناك تراجعا واضحا في النزعة القومية لدى الشعب العربي ، وقد اشر هذا التراجع منذ وقت ليس بالقصير ، بأن الحديث عن الفكر القومي بدأ ينحسر ولابد من تجديد الحديث عنه [6]، لكن يبدو ان التراجع من القوة بمكان يتعذر معه مواجهته ، وترك للتراجع ان يشكل المجتمع العربي بطريقته التي جعلت منه متقوقعا فكرا وسلوكا في إطار محليته ، وكانت عوامل عديدة أسهمت بهذا التراجع ، ويقف الإعلام بمختلف مضامينه في مقدمة تلك العوامل ، مع معرفتنا بهيمنة السلطة السياسية على الإعلام خلال مرحلة ما بعد الاستقلال التي حجمت بحدود لايستهان بها من أدواره المتعلقة بهذا الشأن .

واذا كان الإعلام العربي الخاص المسؤول منه وغير المسؤول يتجه بغالبه نحو المحلية ، فمن المؤكد ان مسالة اللغة لن تحظى باهتمام جوهري ، ما سيكون له تداعيات خطيرة مستقبلا ، بدلالة اتساع ظاهرة الضعف اللغوي ليس في المجتمع فحسب ، بل في الوسط الجامعي المكلف بعملية التنمية والنهوض بالمجتمع ، وهنا تتجسد خطورة هذه الظاهرة .

الوسط الجامعي مثالا

من بين الظواهر الشائعة في الوسط الطلابي الجامعي ، ظاهرة الضعف الواضح في أساليب التعبير عن الأفكار ، ويتمثل ذلك جليا في النصوص المكتوبة ، بالمقابل كثيرا ما يجري الاستعانة في عمليات التواصل الشفوية باللهجة العامية بشكل يطغى على اللغة الفصيحة في خطاباتهم اليومية ، بينما يراد للغة الفصيحة ان تكون الأداة العلمية في التعبير عما يجول في أذهانهم من أفكار سواء أكانت تلك الأفكار مرتبطة بالمنهج الدراسي ام متولدة في أذهانهم نتيجة عمليات التفكير فيما يتعرضون له من مشكلات ومواقف وغيرها [7].

واذا كان الاتصال هو فن نقل المعاني ، فان عدم التمكن من أساليب التعبير يعنى ان هناك خللا في البناء اللغوي ، وبالتالي افتقاد الطلبة لمهارة التواصل العلمي ، بمعنى ان الحصيلة العلمية المكتسبة لن تكون بالمستوى المطلوب ، فضلا عن تعذر ترجمة تلك الحصيلة إلى أفكار في ميادين العمل التي سيتعاطى معها الطلبة لاحقا . ما يعنى ان أفكارا مشوهة ستتشكل في الأذهان ماكان لها ان تكون بهذا الشكل لولا الضعف الذي يعانوه في أساليب تعبيرهم

واللافت في هذه الظاهرة أنها تنمو بتسارع كبير ، بما جعلها ماثلة للعيان من دون جهد ، لكن صامتا غريبا يخيم على المعنيين بالميدان العلمي إزاء هذه المشكلة التي

تنطوي على مخاطر عديدة منها ما يطول تنمية الفكر وترسيخ الهوية العربية وتعزيز الانتماء للأمة .

حدود الظاهرة وامتداداتها

يعرف جميع العاملين في التعليم الجامعي ان نسبة كبيرة من الطلبة الجامعيين لايرقى مستواهم التعبيري عن مستوى الدراسة الابتدائية على وفق المقاييس العلمية ، واجمالا يمكن القول ان افضل الطلبة في هذا المجال لاتتناسب قدراته التعبيرية مع ما ينبغي ان يكون عليه هذا المستوى في الجامعة . بوصف الجامعة المرحلة الدراسية الاخيرة التي يتلقى فيها الطلبة العلوم التي تؤهلهم لممارسة العمل الميداني.
ان هذا الضعف لم يقتصر على طلبة الدراسة الجامعية الاولية ، بل امتد الى طلبة الدراسات العليا / الماجستير والدكتوراه التي حفلت رسائلهم واطاريحهم بالكثير من الاخطاء النحوية والاسلوبية ، والتي على كثرتها لم يتمكن معها الخبراء اللغويون من تنقيتها من تلك الاخطاء وتحسين ما في جملها وعباراتها من ركاكة ، ولكي تبلغ المستوى الذي نطمح اليه فانها تقتضي اعادة صياغتها كليا، بخاصة وان جهلا واضحا ولامبالاة مقصودة وغير مقصودة في العناية بسباكة التعابير ، ما قاد الى تداخل المعاني وغموضها ، بل انك تبحث عن معنى في فقرات طويلة فيغدو عليك الامر عصيا .
وفي الوقت الذي تضطلع فيه المؤسسة الجامعية بمهمة تنمية اللغة العلمية لدى الطلبة وتنقية لغتهم مما علق بها من سمات ترتبط بانماط تعبيرية لايراد لها الشيوع ، صارت هذه المؤسسة ازاء اساليب تعبيرية مزرية شكلت عقبة كأداء في طريق الارتقاء بمستويات الطلبة في المجالات العلمية التي تهتم بها .
ان هذه المشكلة التي تعامل معها الجميع بوصفها واقع حال ، ونظر اليها البعض جهلا بأنها من المشكلات البسيطة ، الا ان الحقيقة تشير الى انها من المشكلات المعقدة التي تقتضي ايلائها الاهتمام الذي تستحق لما تنطوي عليه من مخاطر جسيمة على عمليات تنمية الفكر والهوية وغيرها من القضايا ذات الاهمية البالغة ، فضلا عن كونها من ابرز التحديات التي تواجه العملية التعليمية حاضرا ومستقبلا .
وعلى هذا نضع التأكيدات الاتية للنظر من خلالها لهذه المشكلة التي يفترض ان تكون في مقدمة اولويات الجهات المعنية بالمنظومة التعليمية الاولية والعليا .

اللغة والتفكير العلمي

اذا كان التفكير العلمي هو العملية التي ينتج بمقتضاها الفكر على اختلاف اشكاله ، فان التفكير الامثل لن يتحقق اذا لم يتمتع الفرد بلغة قادرة على احتواء ذلك الفكر والتعبير عنه بدقة ، وللتعبير عن هذه العلاقة قيل ان التفكير هو الكلام بشكل صامت ، وان الكلام هو التفكير بصوت عال ، وبذا فان الضعف في اللغة يؤثر في الفكر تأثيرا بالغا ، وبالتالي فان الاهتمام عندما ينصب على تطوير قدرات الطلبة اللغوية ، انما يهدف بالاصل الى تنمية قدرات التعبير عما يجول في اذهانهم من افكار .

واهمية تلك الافكار في رفد الحياة والمجتمع بالجديد الذي من شأنه الارتقاء بمستوى الحياة الانسانية ماديا ومعنويا . لذلك نظر الى اللغة بوصفها مفتاحا لنهوض الامم ، بينما يقود تراجع لغة الامة الى تراجعها فكريا وحضاريا [8].

اللغة والمزاج الاجتماعي

للغة وظائف عديدة في الاطار الاجتماعي ، ففضلا عن كونها الاداة التاريخية في التواصل الاجتماعي، فأن وحدة اللغة تقود الى تكوين مزاج اجتماعي واحد يتمظهر عمليا في تمتين النسيج الاجتماعي للشعب ، ولاسيما الشعوب التي تتكون من اطياف اجتماعية متنوعة. وبالتالي فان الاهتمام باللغة واساليب التعبير من شأنه ان ينتج فكرا مبدعا ، فضلا عن محافظته على وحدة النسيج الاجتماعي . وبالتالي تعميق الهوية الوطنية للمجتمع .ومن هنا يبرز الدور الكبير لوسائل الاتصال الجماهيرية .

المصادر

1 ـ انظر بهذا الخصوص :
أ ـ ياسين خليل ، اللغة والوجود القومي ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في المدة 28 ـ 29 ايلول 1982 ، اللغة والوعي القومي (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 1984) ص 347
ب ـ بول شوشار ، اللغة والفكر ، المنشورات العربية ، ص 32 و33
ج ـ نوري جعفر ، اللغة والفكر ، (الرباط ، مكتبة القومي ، 1971) ص 104
2 ـ بيتر ورسلي ، القومية والاشتراكية في العوالم الثلاثة ، ترجمة صلاح سعد الله ، (بغداد ، 1990) ص 98
3 ـ الهادي الزريبي ، الابعاد الانسانية للقومية العربية ، مجلة المستقبل العربي (بيروت ،العدد 78 ، لسنة 1985) ص 153
4ـ ساطع الحصري ، اراء واحاديث في الوطنية والقومية ، ط4 ، (بيروت ، دار العلم للملايين ، 1961) ص 32
5 ـ زكي الارسوزي ، المؤلفات الكاملة ، المجلد السادس ، (دمشق ، مطابع الادارة السياسية للجيش والقوات المسلحة ، 1976) ص 451
6 ـ جليل وادي ، الفكر القومي في الصحافة العراقية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الاداب ، قسم الاعلام ، 1992 ، ص أ
7 ـ جليل وادي ، ظواهر خطيرة : ركاكة التعبير وتشوه المعاني ، جريدة الاتحاد العراقية ، 26 / 6 / 2011
8 ـ عبد الرحمن البزاز ، هذه قوميتنا ، (القاهرة ، دار القلم ، 1964) ص 110